الحلقة 24

إعداد: هشام المنشاوي

وقعت بين جيش المرابطين وقوات مملكة قشتالة

«أقليش» .... معركة «الكونتات» السبعة

معركة أقليش وتسمى أيضًا في المصادر الغربية معركة الكونتات السبعة (بالإسبانية: Batalla de Uclés)، هي معركة وقعت في الجمعة 16 شوال 501 هـ/29 مايو 1108م بين جيش المرابطين وقوات مملكة قشتالة بقيادة القائد القشتالي ألبار هانس يصاحبه ولي العهد الأمير سانشو ابن ألفونسو السادس ملك قشتالة، وعدد من الكونتات أبرزهم غارسيا أردونيث كونت قبرة ومُربّي ولي العهد، وانتهت بانتصار ساحق لجيش المرابطين.

في سنة 498 هـ، أغارت قوات ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة 498 هـ في 3،500 مقاتل على أحواز إشبيلية، وعاثت فيها واستولت على الكثير من الغنائم والسبي، فخرج لهم سير بن أبي بكر والي إشبيلية ومعه قوات محمد بن الحاج والي غرناطة حينئذ، وردّوهم على أعقابهم، وقتلوا منهم نحو 1،500 مقاتل. انشغل المرابطون بعد ذلك حيث مرض قائدهم يوسف بن تاشفين مرض موته، حتى وافاه أجله في الأول من المحرم سنة 500 هـ، وخلفه ولده علي بن يوسف. وبعد أن رتّب علي دولته، أمر أخاه تميم بن يوسف يأمره باستئناف الجهاد.

خرج تميم من غرناطة في آخر رمضان 501 هـ/مايو 1108 م نحو جيّان حتى وافته قوات قرطبة بقيادة محمد بن أبي رنق، ثم سار إلى بيّاسة ومنها إلى أراضي قشتالة، وفي الطريق لحقته قوات مرسية بقيادة محمد بن عائشة، وقوات بلنسية بقيادة محمد بن فاطمة، ثم اتجهوا صوب بلدة أقليش الحصينة، فوصلوها في 14 شوال 501 هـ/27 مايو 1108م، وحاصروها بقوة، فسقطت في أيديهم في اليوم التالي. بعد أن دخل المرابطون المدينة، فر المقاتلة إلى حصن أقليش، وامتنعوا به، واستنجدوا بألفونسو السادس الذي لبى ندائهم بأن أرسل قوات يقودها قائده ألبار هانس، ومعه ولي العهد سانشو الفتى الصغير ذي الأحد عشر عامًا ومُؤدّبه غارسيا أردونيث كونت قبرة وعدد من كونتات قشتالة. وبعد أن تولى ابن "يوسف بن تاشفين" "علي" الحكم في الاندلس، أرسل الى اخيه "تميم" ليستأنف القتال باتجاه شرق الاندلس لتدمير الثغور الباقية لدى النصارى ...

فاتجه صوب مدينة "أقليش" الواقعة شرق طليطلة وفيها حامية تقدّر بعشرة آلاف فارس، لكن هؤلاء فرّوا منها تحت ضغط الجيش المرابطي، واحتموا بحصن منيع لهم قرب المدينة يُدْعى "أقليش" ايضا ...

فأرسل "الفونسو" مددا على عجل بقيادة ابنه الوحيد "شانجة" وكان صغيرا لم يجاوز الاحد عشر عاما، لكنه أرسله رمزا، يعاونه سبعة امراء من أمراء دولته، حتى سُمّيَت هذه المعركة، بمعركة الامراء السبعة، وكُسرَ جيش قشتالة، وقُتل ولي العهد الصغير "شانجة" كما قُتلَ معه الامراء السبعة ،فتأثّر الفونسو تأثّرا بالغا لضياع شرق الاندلس من سيطرته، ولقتل ولي عهده ابنه الوحيد "شانجة"، ذلك أن الامير الصبي هجم في قلب المعركة الى جانب الامير الذي يشرف عليه، فلم يلبث أن أحاطت به جماعة من فرسان المسلمين وتوالت عليهم الطعان، فسقط "شانجة" من فوق حصانه، وقد أصابته طعنة قاتلة وسقط فوقه مربّيه.

ولجأ الكثير من القشتاليين الى الفرار بعد مقتل الامير ومربّيه، وارتد القائد الكبير "ألبرهانش" صوب طليطلة، كما حاول الفرار الامراء السبعة "الكونتات السبعة" الذين كانوا من أهم القادة في ذلك الجيش القشتالي، وتمت الهزيمة المخزية عليهم، وقتلوا كلهم أثناء هزيمتهم، لذلك أطلق على تلك المعركة: معركة الامراء السبعة..

وغُنمَ المسلمون مغانم كثيرة ..وهذه المعركة تُضاهي معركة الزلاقة أهمية بنتائجها وآثارها، فكانت أعظم نصر أحرزه المرابطون على قوات ألفونسو السادس .. ولا تخلوا هذه المغانم من الخسارات، ومنها استشهاد الكثيرين ومن بينهم الإمام العالم "الجزولي" -رحمه الله- ....

إندلاع المعركة

حين بلغ تميم خبر خروج جيش قشتالة لنجدة أقليش، همّ العودة الانسحاب، لولا أن ثبّته محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وشجّعوه على القتال مهونين عليه أمر جيش قشتالة بأنه جيش صغير لا يزيد عددهم عن ثلاثة آلاف فارس، فثبُت تميم. إلا أنه بعد قدوم الجيش القشتالي، فوجئوا بخطأ التقديرات، ووجدوا أعداد القشتاليين تزيد عن ذلك بكثير، فلم يجد تميم بُدًا من القتال. اختلفت الروايات الإسلامية في تقدير أعداد الجيش القشتالي، فذهب ابن القطان في كتابه «نظم الجُمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان» إلى أن قوام الجيش القشتالي كان 10،000 فارس، فيما قدّره ابن عذاري 7،000 فارس، بينما قدّر المؤرخ الإسباني المعاصر فرانشيسكو غارسيا فيتث الجيش القشتالي بأكثر من 3،000 مقاتل، والمرابطون نحو 2،300 مقاتل.

بدأت المعركة في 16 شوال 501 هـ/29 مايو سنة 1108 م بهجوم من المرابطين بقيادة ابن أبي رنق، وتبعته قوات مرسية وبلنسية، ثم قوات تميم، ودار قتال عنيف، سرعان ما دارت فيه الدائرة على الجيش القشتالي، وقتل ولي العهد الصبي ومربيه في المعركة، وفر ألبار هانس إلى طليطلة، بينما حاول الكونتات السبعة الذين صاحبوا الحملة الفرار إلى حصن بلنشون القريب، فلحقت بهم جماعة من المسلمين قتلتهم عن آخرهم. قدرّ ابن أبي زرع الفاسي في كتابه «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» عدد القتلى من القشتاليين في تلك الوقعة بأكثر من 23 ألف قتيل، أما المؤرخ المعاصر محمد عبد الله عنان، فقد نقل عن مخطوطة محفوظة في مكتبة الاسكوريال كتبها الوزير ابن شرف بأمر تميم بن يوسف إلى أخيه أمير المؤمنين علي بن يوسف يبشّره بالفتح، ويُعلمه بأنه أمر بجمع رؤوس القتلى فبلغت الدانية منها أكثر من ثلاثة آلاف قتيل، غير الغنائم والأسلاب الكثيرة. وقد خسر المسلمون عددًا من القتلى أبرزهم أحد الأئمة يدعى بالإمام الجزولي.

عاد تميم في قواته إلى غرناطة، وترك قوات مرسية وبلنسية تحت إمرة قائديها لحصار قلعة أقليش، فحاصراها لفترة، ثم تظاهرا بالانسحاب، وارتدا بقواتهما ونصبا الكمائن، فخرج المدافعون عن الحصن، فهاجمهم المسلمون، وأمعنوا فيهم القتل والأسر، واحتلوا الحصن. ثم فتحوا بعض المناطق المجاورة وبذة وقونكة وأقونية وكونسويجرا، وغيرها.

دولة المرابطين

شكلت دولة المرابطين اللمتونيين طاقة نافعة للذود عن الإسلام والمسلمين بالأندلس، وقد أخذت على عاتقها مقارعة القوى النصرانية في شبه الجزيرة الأيبيرية، ومن أهم المعارك التي شكلت إحدى حلقات هذا الصراع هي معركة أقليش Battle of Uclés 501هـ / 1107م التي دارت بين جيش المرابطين، وجيش ألفونسو السادس Alfonso VI) (1040 – 1109 بقيادة ابنه سانشو Sancho، وانتهت بانتصار ساحق للمسلمين. حيث خرجت قوات المرابطين من غرناطة بقيادة أبو الطاهر تميم، ثم انضمت إليه قوات جيوش مرسية بقيادة أبي عبد الله بن عائشة، وقوات أخرى من بلنسية بقيادة محمد بن فاطمة، ولما وصلت قوات المرابطين إلى مدينة أقليش حاصرتها ثم هاجمتها بعنف، فلم تستطع قوات النصارى الصمود، ولما سمع بهذا الأمر سانشو (ورد ذكره في المصادر العربية باسم شانجة) ابن الفونسو السادس جمع قواته وهاجم عسكر المرابطين، ودارت بينهم معارك طاحنة انتهت بانتصار قوات المرابطين، وقد مات في هذه المعركة سبعة من كبار فرسان النصارى، لذلك تُعرف هذه المعركة في المصادر الإسبانيّة باسم وقعة الأكناد السبعة أو الكونتات السبعة Seven Counts. وتسلط صفحات المقال الضوء على معركة أقليش لكونها واحدة من معارك الإسلام الكبرى في الأندلس، إلا أنها لم تنل نفس شهرة معركة الزلاقة (1086) أو معركة الأرك (1195)، وإن كانت لا تقل عنهما روعة. فقد ساهمت معركة أقليش في تثبيت سلطان المرابطين في الأندلس، ومنحت جرعات أخرى من الثقة في نفوس المرابطين، كما ساهمت في فرملة حركة الاسترداد المسيحي التي طالت أقاليم عدة من مدن المسلمين في الأندلس وأهلكت معها الحرث والنسل.

وتحركت الجيوش المسلمة في أواخر رمضان سنة 501هـ، وتوجهت إلى أقليش لفتحها وفي نفس الوقت عندما اقتربت هذه الجيوش من المدينة، أرسلت حامياتها الإسبانية برسالة استغاثة لألفونسو السادس لنجدتهم، فجهز حملة قوية بقيادة أشهر قادة ألبرهانس صاحب التجربة الكبيرة والخبرة الواسعة في قتال المسلمين، وأرسل معه ولده الوحيد وولي عهده سانشو وكان صبيًا في الحادية عشرة وذلك ليثير حفيظة وعزيمة جنوده كنوع من الشحن المعنوي للحملة، وقد أرسل معه سبعة كونتات من أشراف قشتالة لحمايته ومشورته.

وصلت القوات المسلمة أولاً قبل الإسبانية إلى أقليش وهاجمتها بمنتهى العنف حتى فتحتها وذلك يوم الخميس 15 شوال 501هـ، وكان في المدينة الكثير من المسلمين المدجّنين وهم المسلمون الذين ظلوا في المدن التي استولى عليها الإسبان، فبقوا تحت حكم النصارى، فلما فتحها المسلمون انضم كثير من المدجنين للمعسكر الإسلامي، وشرحوا لإخوانهم المسلمين أوضاع المدينة وخصوصًا الحامية الإسبانية التي ما زالت موجودة بالقلعة ومنتظرة وصول نجدة ألفونسو لهم.

لم تمر سوى ساعات قلائل حتى وصل الجيش الإسباني وكان تعداده أضعاف الجيش الإسلامي، مما جعل قائده الأمير تميم يتردد ويحجم عن الصدام وربما فكر في الانسحاب، ولكن القائدين الكبيرين محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة نصحوه بالبقاء وملاقاة العدو وهونوا عليه الأمر، فقويت عزيمة الأمير تميم، واتفق الجميع على الصدام.

من أهم معارك الإسلام الكبرى

تعد معركة أقليش واحدة من معارك الإسلام الكبرى في الأندلس، ولكنها لم تنل نفس شهرة الزلاقة أو الأرك وإن كانت لا تقل عنهما روعة، مثلها مثل معارك سطّر فيا المسلمون بطولات و إنتصارات لكنها لم تأخذ حقها كما يجب في سطور التاريخ كمعركة بروزة.

معركة أقليش وتسمى أيضًا في المصادر الغربية معركة الكونتات السبعة (بالإسبانية: Batalla de Uclés)، هي معركة وقعت في الجمعة 16 شوال 501 هـ/29 مايو 1108م بين جيش المرابطين وقوات مملكة قشتالة بقيادة القائد القشتالي ألبار هانس يصاحبه ولي العهد الأمير سانشو ابن ألفونسو السادس ملك قشتالة، وعدد من الكونتات أبرزهم غارسيا أردونيث كونت قبرة ومُربّي ولي العهد، وانتهت بانتصار ساحق لجيش المرابطين. بعد هزيمة ألفونسو السادس في معركة الزلاقة الشهيرة تهيب من الدخول في صدام مباشر مع المرابطين، بعد أن خبر قوتهم عن كثب ومع انتشار خبر مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وقرب وفاته، وهذا الأمر شجع الإسبان الصليبيين وملكهم العجوز ألفونسو السادس على استئناف غاراتهم المخربة ضد أراضي المسلمين، وكان الملك العجوز يضطرم برغبة عارمة للانتقام من هزيمته الثقيلة في الزلاقة قبل عشرين سنة، فهاجم الإسبان أحواز إشبيلية سنة 499هـ وعاثوا فيها فسادًا واستولوا على كثير من الأسرى والغنائم، وانشغل المسلمون عنهم بوفاة أمير المسلمين بعد ذلك بقليل.

كان خطر ألفونسو يتعاظم يوما بعد يوم وعملياته الحربية تزداد خطورة وشراسة وليس هناك إلا أمر من بين اثنين، أن ينهض من المغرب من يعيد للأندلس مجد الزلاقة وبطولاتها أو أن تضيع الأندلس للأبد، ولم يكن هذا البطل المخلص غير علي بن يوسف بن تاشفين.

تولى علي بن يوسف حكم دولة المرابطين بعد أبيه بمباركة كل الفقهاء المرابطين، ومع أنه لم يكن أكبر إخوته سنا إلا أن سجاياه أهلته للقيادة وكان أول مبايعيه أخوه الأكبر «أبو الطاهر تميم» يقول المراكشي: «كان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيدا عن الظلم، وكان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين، واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء». إن صغر سن علي بن يوسف لم يحل دون تمتعه بالحكمة وبعد النظر وما تقريبه للعلماء ومشاورتهم إلا دليل على نضجه المبكر، كانت الدولة المرابطية في عصره مترامية الأطراف يقول لسان الدين بن الخطيب عن ذلك: «ملك جميع بلاد المغرب إلى بجاية إلى الأرض الأندلسية والجزر الجوفية وبلاد القبلة بأسرها وخطب له على أكثر من ألفي منبر».

وقرّر علي بن يوسف تأديب الإسبان بصورة قوية تردهم عن مثل هذا العدوان السابق، فأصدر أوامره لأخيه الأمير تميم قائد الجيوش المرابطية بالأندلس بالاستعداد لغزو أراضي قشتالة، فصدع الأمير تميم بالأمر وأعد جيوشًا كبيرة وضم إليه اثنين من أمهر قادة المرابطين، وهما محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وتم تحديد الهدف الذي سيهاجمه المسلمون، وكان مدينة أقليش الحصينة، وهي من أمنع معاقل الإسبان في شمال جبال طليطلة وقد أنشأها في الأصل المسلمون، واستولى عليها الإسبان لما سقطت طليطلة في صفر سنة 478هـ.

نتائج المعركة

لم تمر سوى ساعات قلائل حتى وصل الجيش الإسباني وكان تعداده أضعاف الجيش الإسلامي، مما جعل قائده الأمير تميم يتردد ويحجم عن الصدام وربما فكر في الانسحاب، ولكن القائدين الكبيرين محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة نصحوه بالبقاء وملاقاة العدو وهونوا عليه الأمر، فقويت عزيمة الأمير تميم، واتفق الجميع على الصدام.

وفي فجر يوم الجمعة 16 شوال سنة 501هـ اصطدم الجيشان في قتال بالغ العنف حتى اختلفت أعناق الخيول، وصبر كل فريق للآخر صبرًا شديدًا، ولم تظهر بوادر النصر لأي منهما، حتى وقعت حادثة غيرت مجرى القتال، ذلك أن الصبي سانشو ولي عهد ألفونسو السادس، انفلت من خيمته ونزل أرض القتال وكان يرتدي زي الفرسان، ووقع وسط ثلة من فرسان المسلمين فقتلوه وحاول بعض الكونتات إنقاذه فقتل معه، فدب الهرج والمرج في صفوف الإسبان وانهارت عزائمهم وهم يرون مقتل ولي عهدهم وقائد جيشهم، فكثر القتل فيهم..

وحاول الكونتات السبعة الذين كانوا يؤلفون حاشية الأمير المقتول الفرار لأحد الحصون القريبة، فلحق بهم جماعة من المدجنين وقتلوهم جميعًا، وهكذا تمت الهزيمة الساحقة للإسبان، وتوطدت سمعة ومكانة المرابطين في الأندلس، ولقد عرفت هذه المعركة في التاريخ باسم موقعة الكونتات السبعة، وقد وقع خبر الهزيمة ومقتل الأمير سانشو على ألفونسو مثل الصاعقة، حتى إنه استسلم إلى التأوه والنوح بمحضر من حاشيته، ولم يستطع أن يحتمل الصدمة فتوفي مقتولاً بالهم والغم والحزن.